

تفسير ابن كثير

يقول تعالى مخبرا عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصره دينه وإقامة شريعته فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلا كما قال تعالى : { وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم } وقال تعالى : { إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز } أي بممتنع ولا صعب وقال تعالى ههنا { يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه } أي يرجع عن الحق إلى الباطل قال محمد بن كعب : نزلت في الولاة من قريش وقال الحسن البصري : نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر { فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه } قال الحسن : هو والله أبو بكر وأصحابه رواه ابن أبي حاتم وقال أبو بكر بن أبي شيبة : سمعت أبا بكر بن عياش يقول : في قوله { فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه } هم أهل القادسية وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد : هم قوم من سبأ وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله بن الأجلح عن محمد بن عمرو عن سالم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله { فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه } قال : ناس من أهل اليمن ثم من كندة من السكون .

وحدثنا أبي حدثنا محمد بن المصنف حدثنا معاوية يعني ابن حفص عن أبي زياد الحلفاني عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله { فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه } قال [هؤلاء قوم من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون ثم من تجيب] وهذا حديث غريب جدا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عمر بن شبة حدثنا عبد الصمد يعني ابن عبد الوارث حدثنا شعبة عن سماك سمعت عياضا يحدث عن أبي موسى الأشعري قال : لما نزلت { فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه } قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [هم قوم هذا] ورواه ابن جرير من حديث شعبة بنحوه وقوله تعالى : { أدلة على المؤمنين أعزة على الكافرين } هذه صفات المؤمنين الكامل أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه متعززا على خصمه وعدوه كما قال تعالى : { محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم } وفي صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه الضحوك القتال فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه .

وقوله D { يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم } أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يردهم عن ذلك راد ولا يصدهم عنه صاد ولا يحيك فيهم لوم لائم ولا عذل عاذل قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا سلام أبو المنذر عن محمد بن واسع عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر قال : أمرني خليلي صلى

اﻟﻌﻠﻤﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﺑﺴﻴﻊ : ﺃﻣﺮﻧﻲ ﺑﺤﺐ ﺍﻟﻤﺴﺎﻛﻴﻦ ﻭﺍﻟﺪﻧﻮ ﻣﻨﻬﻢ ﻭﺃﻣﺮﻧﻲ ﺃﻥ ﺃﻧﺰﺭ ﺇﻟﻰ ﻣﻦ ﻫﻮ ﺩﻭﻧﻲ ﻭﻻ ﺃﻧﺰﺭ ﺇﻟﻰ ﻣﻦ ﻫﻮ ﻓﻮﻗﻲ ﻭﺃﻣﺮﻧﻲ ﺃﻥ ﺃﺻﻞ ﺍﻟﺮﺣﻢ ﻭﺇﻥ ﺃﺩﺑﺮﺕ ﻭﺃﻣﺮﻧﻲ ﺃﻥ ﻻ ﺃﺳﺄﻝ ﺃﺣﺪﺍ ﺷﻴﺌﺎ ﻭﺃﻣﺮﻧﻲ ﺃﻥ ﺃﻗﻮﻝ ﺍﻟﺤﻖ ﻭﺇﻥ ﻛﺎﻥ ﻣﺮﺍ ﻭﺃﻣﺮﻧﻲ ﺃﻥ ﻻ ﺃﺧﺎﻑ ﻓﻲ ﺍﻟﻠﻮﻣﺔ ﻻﺋﻢ ﻭﺃﻣﺮﻧﻲ ﺃﻥ ﺃﻛﺜﺮ ﻣﻦ ﻗﻮﻝ ﻻ ﺣﻮﻝ ﻭﻻ ﻗﻮﺓ ﺇﻻ ﺑﺎﻟﻌﻨﺰ ﻣﻦ ﻛﻨﺰ ﺗﺤﺖ ﺍﻟﻌﺮﺵ .

ﻗﺎﻝ ﺍﻟﺒﺨﺎﺭﻱ ﺗﻔﺮﺩ ﺍﺑﻦ ﺍﻟﻤﺒﺎﺭﻙ ﺑﻬﺬﺍ ﺍﻟﺤﺪﻳﺚ ﻭﻗﺪ ﺍﺳﺘﺪﻟ ﻛﺜﻴﺮ ﻣﻤﻦ ﺯﻫﺐ ﻣﻦ ﺍﻟﺄﻭﻟﻴﻴﻦ ﻭﺍﻟﻔﻘﻬﺎﺀ ﺇﻟﻰ ﺃﻥ ﺷﺮﻉ ﻣﻦ ﻗﺒﻠﻨﺎ ﺷﺮﻉ ﻟﻨﺎ ﺇﺫﺍ ﺣﻜﻲ ﻣﻘﺮﺭﺍ ﻭﻟﻢ ﻳﻨﺴﺦ ﻛﻤﺎ ﻫﻮ ﺍﻟﻤﺸﻬﻮﺭ ﻋﻦ ﺍﻟﺠﻤﻬﻮﺭ ﻭﻛﻤﺎ ﺣﻜﺎﻩ ﺍﻟﺸﻴﺦ ﺃﺑﻮ ﺇﺳﺤﺎﻕ ﺍﻟﯿﺴﻔﺮﺍﻳﻴﻨﻲ ﻋﻦ ﻧﺼﺖ ﺍﻟﺸﺎﻓﻌﻲ ﻭﺃﻛﺜﺮ ﺍﻟﺄﺼﺤﺎﺏ ﺑﻬﺬﻩ ﺍﻻﻳﺔ ﺣﻴﺚ ﻛﺎﻥ ﺍﻟﺤﻜﻢ ﻋﻨﺪﻧﺎ ﻋﻠﻰ ﻭﻓﻘﻬﺎ ﻓﻲ ﺍﻟﺠﻨﺎﻳﺎﺕ ﻋﻨﺪ ﺟﻤﻴﻊ ﺍﻟﺄﺋﻤﺔ ﻭﻗﺎﻝ ﺍﻟﺤﺴﻦ ﺍﻟﺒﺴﺮﻱ : ﻫﻲ ﻋﻠﻴﻬﻢ ﻭﻋﻠﻰ ﺍﻧﻨﺎﺱ ﻋﺎﻣﺔ ﺭﻭﺍﻩ ﺍﺑﻦ ﺃﺑﻲ ﺣﺎﺗﻢ : ﻭﻗﺪ ﺣﻜﻰ ﺍﻟﺸﻴﺦ ﺃﺑﻮ ﺯﻛﺮﻳﺎ ﺍﻟﻨﻮﻭﻱ ﻓﻲ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﻤﺴﺌﻠﺔ ﺛﻼﺛﺔ ﺃﻭﺟﻪ ﺛﺎﻟﺜﻬﺎ ﺃﻥ ﺷﺮﻉ ﺇﺑﺮﺍﻫﻴﻢ ﺣﺠﺔ ﺩﻭﻥ ﻏﻴﺮﻩ : ﻭﺻﺢ ﻣﻨﻬﺎ ﻋﺪﻡ ﺍﻟﺤﺠﻴﺔ ﻧﻘﻠﻬﺎ ﺍﻟﺸﻴﺦ ﺃﺑﻮ ﺇﺳﺤﺎﻕ ﺍﻟﯿﺴﻔﺮﺍﻳﻴﻨﻲ ﺃﻗﻮﺍﻻ ﻋﻦ ﺍﻟﺸﺎﻓﻌﻲ ﻭﺃﻛﺜﺮ ﺍﻟﺄﺼﺤﺎﺏ ﻭﺭﺟﺢ ﺃﻧﻪ ﺣﺠﺔ ﻋﻨﺪ ﺍﻟﺠﻤﻬﻮﺭ ﻣﻦ ﺃﺼﺤﺎﺑﻨﺎ ﻓﺎﻟﻌﻠﻢ .

ﻭﻗﺪ ﺣﻜﻰ ﺍﻟﯿﻤﺎﻡ ﺃﺑﻮ ﻧﺼﺮ ﺑﻦ ﺍﻟﺼﺒﺎﻍ ﺃ ﻓﻲ ﻛﺘﺎﺑﻪ [ﺍﻟﺸﺎﻣﻞ] ﺇﺟﻤﺎﻉ ﺍﻟﻌﻠﻤﺎﺀ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﺤﺘﺠﺎﺝ ﺑﻬﺬﻩ ﺍﻻﻳﺔ ﻋﻠﻰ ﻣﺎ ﺩﻟﺖ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﻗﺪ ﺍﺣﺘﺞ ﺍﻟﺄﺋﻤﺔ ﻛﻠﻬﻢ ﻋﻠﻰ ﺃﻥ ﺍﻟﺮﺟﻞ ﻳﻘﺘﻞ ﺑﺎﻟﻤﺮﺃﺓ ﺑﻌﻤﻮﻡ ﻫﺬﻩ ﺍﻻﻳﺔ ﺍﻟﻜﺮﻳﻤﺔ ﻭﻛﺬﺍ ﻭﺭﺩ ﻓﻲ ﺍﻟﺤﺪﻳﺚ ﺍﻟﺬﻱ ﺭﻭﺍﻩ ﺍﻟﻨﺴﺎﺀﻱ ﻭﻏﻴﺮﻩ ﺃﻥ ﺭﺳﻮﻝ ﺍﻟﻠﻪ ﺻﻠﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻋﻠﻴﻪ ﻭﺳﻼﻡ ﻛﺘﺐ ﻓﻲ ﻛﺘﺎﺏ ﻋﻤﺮﻭ ﺑﻦ ﺣﺰﻡ [ﺃﻥ ﺍﻟﺮﺟﻞ ﻳﻘﺘﻞ ﺑﺎﻟﻤﺮﺃﺓ] ﻭﻓﻲ ﺍﻟﺤﺪﻳﺚ ﺍﻻﺧﺮ [ﺍﻟﻤﺴﻠﻤﻮﻥ ﺗﺘﻜﺎﻓﺄ ﺩﻣﺎﺅﻫﻢ] ﻭﻫﺬﺍ ﻗﻮﻝ ﺟﻤﻬﻮﺭ ﺍﻟﻌﻠﻤﺎﺀ ﻭﻋﻦ ﺃﻣﻴﺮ ﺍﻟﻤﻮﺋﻤﻨﻴﻦ ﻋﻠﻲ ﺑﻦ ﺃﺑﻲ ﻃﺎﻟﺐ ﺃﻥ ﺍﻟﺮﺟﻞ ﺇﺫﺍ ﻗﺘﻞ ﺍﻟﻤﺮﺃﺓ ﻻ ﻳﻘﺘﻞ ﺑﻬﺎ ﺇﻻ ﺃﻥ ﻳﺪﻓﻊ ﻭﻟﻴﻬﺎ ﺇﻟﻰ ﺃﻭﻟﻴﺎﺋﻪ ﻧﺼﻒ ﺍﻟﺪﻳﺔ ﻻﻥ ﺩﻳﺘﻬﺎ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻨﺼﻒ ﻣﻦ ﺩﻳﺔ ﺍﻟﺮﺟﻞ ﻭﺇﻟﻴﻪ ﺯﻫﺐ ﺃﺣﻤﺪ ﻓﻲ ﺭﻭﺍﻳﺔ ﻭﺣﻜﻲ ﻋﻦ ﺍﻟﺤﺴﻦ ﻭﻋﻄﺎﺀ ﻭﻋﺜﻤﺎﻥ ﺍﻟﺒﺴﺘﻲ { ﻭﺍﻟﻌﻠﻢ ﻭﺍﺳﻊ ﻋﻠﻴﻢ } ﺃﻱ ﻭﺍﺳﻊ ﺍﻟﻔﻀﻞ ﻋﻠﻴﻢ ﺑﻤﻦ ﻳﺴﺘﺤﻖ ﺫﻟﻚ ﻣﻤﻦ ﻳﺤﺮﻣﻪ ﺇﻳﺎﻩ .

ﻭﻗﻮﻟﻪ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﺇﻧﻤﺎ ﻭﻟﻴﻜﻢ ﺍﻟﻠﻪ ﻭﺭﺳﻮﻟﻪ ﻭﺍﻟﺬﻳﻦ ﺃﻣﻨﻮﺍ } ﺃﻱ ﻟﻴﺲ ﺍﻟﻴﻬﻮﺩ ﺑﺄﻭﻟﻴﺎﺋﻜﻢ ﺑﻞ ﻭﻻﻳﺘﻜﻢ ﺭﺍﺟﻌﺔ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻠﻪ ﻭﺭﺳﻮﻟﻪ ﻭﺍﻟﻤﻮﺋﻤﻨﻴﻦ ﻭﻗﻮﻟﻪ { ﺍﻟﺬﻳﻦ ﻳﻘﻴﻤﻮﻥ ﺍﻟﺼﻼﺓ ﻭﻳﺆﺗﻮﻥ ﺍﻟﺰﻛﺎﺓ } ﺃﻱ ﺍﻟﻤﻮﺋﻤﻨﻮﻥ ﺍﻟﻤﺘﺼﻔﻮﻥ ﺑﻬﺬﻩ ﺍﻟﺼﻔﺎﺕ ﻣﻦ ﺇﻗﺎﻡ ﺍﻟﺼﻼﺓ ﺍﻟﺘﻲ ﻫﻲ ﺃﻛﺒﺮ ﺃﺭﻛﺎﻥ ﺍﻟﯿﺴﻼﻡ ﻭﻫﻲ ﻋﺒﺎﺩﺓ ﺍﻟﻠﻪ ﻭﺣﺪﻩ ﻻ ﺷﺮﻳﻚ ﻟﻪ ﻭﺇﻳﺘﺎﺀ ﺍﻟﺰﻛﺎﺓ ﺍﻟﺘﻲ ﻫﻲ ﺣﻖ ﺍﻟﻤﺨﻠﻮﻗﻴﻦ ﻭﻣﺴﺎﻋﺪﺓ ﻟﻠﻤﺤﺘﺎﺟﻴﻦ ﻭﺍﻟﻤﺴﺎﻛﻴﻦ ﻭﺃﻣﺎ ﻗﻮﻟﻪ { ﻭﻫﻢ ﺭﺍﻛﻌﻮﻥ } ﻓﻘﺪ ﺗﻮﻫﻢ ﺑﻌﻀﺖ ﺍﻧﻨﺎﺱ ﺃﻥ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﺠﻤﻠﺔ ﻓﻲ ﻣﻮﻭﻉ ﺍﻟﺤﺎﻝ ﻣﻦ ﻗﻮﻟﻪ { ﻭﻳﺆﺗﻮﻥ ﺍﻟﺰﻛﺎﺓ } ﺃﻱ ﻓﻲ ﺣﺎﻝ ﺭﻛﻮﻋﻬﻢ ﻭﻟﻮ ﻛﺎﻥ ﻫﺬﺍ ﻛﺬﻟﻚ ﻟﻜﺎﻥ ﺩﻓﻊ ﺍﻟﺰﻛﺎﺓ ﻓﻲ ﺣﺎﻝ ﺍﻟﺮﻛﻮﻉ ﺃﻓﻀﻞ ﻣﻦ ﻏﻴﺮﻩ ﻻﻧﻪ ﻣﻤﺪﻭﺥ ﻭﻟﻴﺲ ﺍﻟﺄﻣﺮ ﻛﺬﻟﻚ ﻋﻨﺪ ﺃﺣﺪ ﻣﻦ ﺍﻟﻌﻠﻤﺎﺀ ﻣﻤﻦ ﻧﻌﻠﻤﻪ ﻣﻦ ﺃﺋﻤﺔ ﺍﻟﻔﺘﻮﻯ ﻭﺣﺘﻰ ﺇﻥ ﺑﻌﻀﻬﻢ ﺫﻛﺮ ﻓﻲ ﻫﺬﺍ ﺃﺛﺮﺍ ﻋﻦ ﻋﻠﻲ ﺑﻦ ﺃﺑﻲ ﻃﺎﻟﺐ ﺃﻥ ﻫﺬﻩ ﺍﻻﻳﺔ ﻧﺰﻟﺖ ﻓﻴﻪ ﻭﺫﻟﻚ ﺃﻧﻪ ﻣﺮﺑﻪ ﺳﺎﺋﻞ ﻓﻲ ﺣﺎﻝ ﺭﻛﻮﻋﻪ ﻓﺄﻋﻄﺎﻩ ﺧﺎﺗﻤﻪ .

ﻭﻗﺎﻝ ﺍﺑﻦ ﺃﺑﻲ ﺣﺎﺗﻢ : ﺣﺪﺛﻨﺎ ﺍﻟﺮﺑﻴﻊ ﺑﻦ ﺳﻠﻴﻤﺎﻥ ﺍﻟﻤﺮﺍﺩﻱ ﺣﺪﺛﻨﺎ ﺃﻳﻮﺏ ﺑﻦ ﺳﻮﻳﺪ ﻋﻨﻌﺘﻪ ﺑﻦ

أبي حكيم في قوله { إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا } قال : هم المؤمنون وعلي بن أبي طالب وحدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا الفضل بن دكين أبو نعيم الأحول حدثنا موسى بن قيس الحضرمي عن سلمة بن كهيل قال : تصدق علي بخاتمه وهو راعك فنزلت { إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راععون } وقال ابن جرير : حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا غالب بن عبيد الله سمعت مجاهدا يقول في قوله { إنما وليكم الله ورسوله } الآية نزلت في أبي طالب تصدق وهو راعك وقال عبد الرزاق : حدثنا عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس في قوله { إنما وليكم الله ورسوله } الآية نزلت في علي بن أبي طالب عبد الوهاب بن مجاهد لا يحتج به .

وروى ابن مردويه من طريق سفيان الثوري عن أبي سنان عن الضحاك عن ابن عباس قال : كان علي بن أبي طالب قائما يصلي فمر سائل وهو راعك فأعطاه خاتمه فنزلت { إنما وليكم الله ورسوله } الآية الضحاك لم يلق ابن عباس وروى ابن مردويه أيضا من طريق محمد بن السائب الكلبي وهو متروك عن أبي صالح عن ابن عباس قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد والناس يصلون بين راعك وساجد وقائم وقاعد وإذا مسكين يسأل فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : [أعطاك أحد شيئا ؟] قال : نعم قال [من ؟] قال : ذلك الرجل القائم قال [على أي حال أعطاكه ؟] قال : وهو راعك قال [وذلك علي بن أبي طالب] قال فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وهو يقول { ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون } وهذا إسناد لا يفرح به .

ثم رواه ابن مردويه من حديث علي بن أبي طالب عنه نفسه وعمار بن ياسر وأبي رافع وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها ثم روى بإسناده عن ميمون بن مهران عن ابن عباس في قوله { إنما وليكم الله ورسوله } نزلت في المؤمنين وعلي بن أبي طالب أولهم وقال ابن جرير : حدثنا هناد حدثنا عبدة عن عبد الملك عن أبي جعفر قال : سألته عن هذه الآية { إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راععون } قلنا : من الذين آمنوا ؟ قال : الذين آمنوا قلنا بلغنا أنها نزلت في علي بن أبي طالب قال : علي من الذين آمنوا وقال أسباط عن السدي : نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين ولكن علي بن أبي طالب مر به سائل وهو راعك في المسجد فأعطاه خاتمه .

وقال علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس : من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا رواه ابن جرير وقد تقدم في الأحاديث التي أوردناها أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت عنه حين تبرأ من حلف اليهود ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ولهذا قال تعالى بعد هذا كله { ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون } كما قال تعالى : { كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز * لا تجد قوما يؤمنون بالآيات واليوم

الآخر يوادون من حاد ا ١ ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها Bهم ورضوا عنه أولئك حزب ا ١ ألا إن حزب ا ١ هم المفلحون { فكل من رضي بولاية ا ١ ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة ومنصور في الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة { ومن يتول ا ١ ورسوله والذين آمنوا فإن حزب ا ١ هم الغالبون }